

قراءة النص الإسلامي والمقاربات المنهجية الجديدة

الدكتور مرزوق العمري
جامعة باتنة - الجزائر

مقدمة: : يفترض فيمن يبحث في مجال معرفي معين أن يتعامل معه بمناهجه وآلياته حتى يكون المنهج المتبع مناسباً للموضوع لا غريباً عنه، وهذا أحد أسباب تعدد المناهج إنه تعدد المواضيع، ولهذا كانت للعلوم الطبيعية مناهجها، وكانت للعلوم الإنسانية مناهجها، ثم تعددت مناهج العلوم الإنسانية بتعدد الظاهرة المدروسة؛ فالظاهرة النفسية تدرس بمنهج، والظاهرة الاجتماعية تدرس بمنهج، والظاهرة التاريخية تدرس بمنهج آخر، وهكذا يتنوع المنهج حسب تنوع الموضوع. وهذه المسألة مقررة في المناهج التي تأخذ بها الثقافة الغربية، وهي مناهج تأسست في الإطار العام لتلك الثقافة ثم صارت مهيمنة بفعل التفوق الحضاري لدى الغرب.

ما ينبغي التركيز عليه أن المنهج يتنوع ويختلف حسب اختلاف الموضوع، خاصة إذا كان هذا الموضوع من مواضيع العلوم الإنسانية لا من مواضيع العلوم الطبيعية وبشكل أخص إذا كان من العلوم الدينية. هذا المبدأ نجده معترف به من حيث هو كذلك في القراءات المعاصرة للنص الإسلامي؛ فمحمد أركون مثلاً يقول: "إن المادة التي أدرسها هي التي تفرض علي اختيار المنهج الملائم وليس العكس؛ بمعنى آخر فأنا لا أطبق المنهج اعتسافاً على النص. هذا الموقف منهجي ذو أهمية قصوى ينبغي عدم استيراد المناهج هكذا وإصاقها لصقا على النصوص والمادة المدروسة ذلك أنه ينبغي إعطاء الكلام للنص أولاً وطرح الأسئلة عليه، و من خلاله قبل تطبيق أي منهجية أجنبية عليه. إن المادة إذن هي التي تفرض اختيار هذا المنهج أو ذاك وليس المنهج هو الذي يخضع المادة المدروسة لمفاهيمه وقوابله تعسفاً، نقول ذلك بخصوص كل النصوص فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالقرآن؟! "⁽¹⁾.

إن الموضوع هو السيد حسب هذا الكلام وما المنهج الذي يستخدم إلا تابع له، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالنص القرآني. وفي هذا أيضاً نجد الجابري يقرر نفس الأمر؛ فيقول إن: "طبيعة الموضوع هي التي تحدد نوعية المنهج، وإذن فإن اختيارنا لنوع (القراءة) التي نقتربها عليكم هنا ليس محكوماً برغبة ذاتية ولا بتحيز لنوع من المناهج دون غيره، بل هو اختيار تمليه علينا طبيعة موضوعنا: التراث "⁽²⁾.

¹- محمد أركون : الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، ط2(1996م) ص230.

²- محمد عبد الجابري : التراث والحداثة، المركز الثقافي العربي، ط1(1991م)، ص46.

من خلال هذين النموذجين يتجلى التركيز على الموضوع، وضرورة اختيار المنهج المناسب له. بناء هذا الكلام؛ كلام أركون والجايري الذي يمكن أخذه كمسلمة سنرى مدى اعتماد القراءة المعاصرة في الأخذ بها بناء على ذلك نقف على إشكالية هذه الدراسة والتي يمكن صياغتها في التساؤلات التالية: ماهي المناهج التي وظفت في القراءة المعاصرة للنص الإسلامي بتجلياته المختلفة؟ وهل هي مساوقة للنص محل الدراسة أم لا؟ وإذا تم استيراد مناهج من الفضاء الثقافي غير الإسلامي ماهي هذه المناهج المستوردة؟ وما هي مبررات توظيفها؟ وهل تمت تبيئتها إسلامياً ومن ثم التمهيد لإنزالها على النص الإسلامي؟. هذه التساؤلات هي ما تسعى هذه الدراسة الإجابة عنه.

وقد فرضت هذه الإشكالية العودة إلى بعض الدراسات السابقة مثل كتابات الدكتور طه عبد الرحمن.

أولاً

المقاربات المنهجية الجديدة

الدلالة ومبررات التوظيف

تعددت المقاربات المنهجية التي أخذت بها القراءة المعاصرة للنص الإسلامي حيث انطوت على عدة مناهج، وفي ذكرنا لها نقف عند المقاربات الأكثر تأثيراً وهي:

1-1- المقاربة اللسانية (الدلالة): تعتبر اللسانيات المحطة الثالثة في تاريخ الظاهرة اللغوية وقد سبقت بمحطتين كبيرتين، أما الأولى فهي القواعد (Grammaire) وهي المحطة التي تأسست قديماً من طرف الإغريق، أما المحطة الثانية فقد مثلتها "الفيلولوجيا" (La Philologie) وقد حدد مقابل هذه الكلمة في العربية بـ "فقه اللغة"، ففي معجم أكسفورد حددت هذه الكلمة بـ: "فقه اللغة أو علم تطور اللغات" (3). وأما المحطة الثالثة فهي اللسانيات (L'inguistique) وهي أبرز علم من العلوم اللغوية في التاريخ الحديث والمعاصر. وتحظى باهتمام دوائر البحث الأكاديمي في العالم الغربي و عند المسلمين كذلك. وقد ساعد على انتشارها والاعتناء بها انتصار العلوم الطبيعية على مستوى المنهج وعلى مستوى النتيجة. وهذا ما جعل البحث اللغوي وغيره يقلد العلوم الطبيعية ويتأثر بها وهذا ما يتجلى من تعريف اللسانيات. فهذه الكلمة (L'inguistics) وردت في معجم أكسفورد بأنها تدل على اللغويات، أو علم اللغة وهي الدراسة العلمية للغة وتركيبها (4).

وفي معجم لاروس وردت كلمة (L'inguistique) بأنها علم يهتم بدراسة الكلام واللغات (5). وتوظيف كلمة علم بالمعنى المتداول في العلوم الطبيعية، ولذلك اعتبرت اللسانيات الدراسة العلمية للغة، فقد عرفت بأنها: "الدراسة العلمية للغة الإنسانية، يقال لدراسة ما بأنها دراسة علمية عندما تقوم على مراقبة الوقائع وتمتنع عن اختيار من بين هذه

³ - قاموس أكسفورد المحيط : ص799.

⁴ - معجم أكسفورد، ص615.

⁵ - Le petit Larousse, nouvelle édition (1992), p572.

الوقائع باسم بعض المبادئ الجمالية أو الأخلاقية وعليه فإن مصطلح "علمي" يعارض مصطلح معياري بالنسبة للسانيات⁽⁶⁾.

من خلال هذا يستشف بأن اللسانيات تعارض الصبغة التقليدية في دراسة اللغة فتلك معيارية وهذه علمية، والوصف بالعلمية مستمد من العلوم الطبيعية التي تأسست مناهجها في عصر النهضة أو في زمن الحداثة، ولهذا هناك من ذهب إلى أن مصطلح "Linguistique" لدى الغربيين أو علم اللغة (Science du Langue) عرف في حدود سنة 1833م؛ أي نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر، ثم نضج مع نهاية هذا القرن ومطلع القرن العشرين خاصة مع فرديناند دي سوسير، ومع ظهور كتابه (محاضرات في الألسنية العامة) عام 1916م. وتجدر الإشارة إلى أن المنهج اللساني توزع على ثلاثة مناهج هي: المنهج المقارن، المنهج التاريخي، والمنهج التزامني.

1-1-1: المقاربة الألسنية (مبررات التوظيف): أما عن توظيف اللسانيات ودراساتها فقد تطورت كثيراً إلى درجة أنها صارت تطلق على علم اللغة، وصارت البحوث اللغوية الحديثة كلها تصب في مصب اللسانيات عند الغربيين وهذا ما أدى إلى بروز رؤى في مجال الدراسات اللغوية تنادي بضرورة تطبيق الدراسة اللسانية والمناهج اللسانية. وانتقلت هذه الرؤى إلى العرب أيضاً فخطاب التحديث العربي المعاصر في قراءته للنص الإسلامي ينتقد القراءة السائدة وي طرح قراءة بديلة قوامها مناهج البحث اللغوي أو اللسانيات مراعاة للعلمية على حد زعمه. يقول نصر حامد أبو زيد: "إن اختيار منهج التحليل اللغوي في فهم النص والوصول إلى مفهوم عنه ليس اختياراً عشوائياً نابعا من التردد بين مناهج عديدة متاحة بل الأحرى القول إنه المنهج الوحيد الممكن من حيث تلاؤمه مع موضوع الدرس ومادته"⁽⁷⁾.

إن هذا الموقف حصر لنا صلاحية المنهج في المنهج اللساني أو منهج التحليل اللغوي بحجة علميته، وهذا يجعلنا نفهم بمفهوم المخالفة أن منهج المسلمين في فهم النص لا يعتبر منهجا علميا، وهذا ما يستشف من كلام أركون حينما قال: "المنهجية الجديدة تأخذ بعين الاعتبار الجدليات الاجتماعية وتأثيراتها على العلاقة بين اللغة والفكر، وأما المنهجية القديمة فتجمد هذه الجدليات وتتجاهلها"⁽⁸⁾. ومن هذه الجدليات المتحدث عنها: جدلية النص و الواقع، اللغة والفكر، النص واللغة... وهي أمور من صميم الدرس اللساني. ولذلك كان أركون من أبرز الذين وظفوا هذه المناهج اللسانية في قراءة النص الإسلامي.

من خلال هذين الموقفين و غيرهما نلمس إلحاح القراءة المعاصرة على ضرورة تطبيق مناهج اللسانيات على النص الإسلامي، إلى درجة أننا نجد نصر حامد أبو زيد يعتبر

⁶ - Andre Martinet, Eliments de Linguistique Geniale, Nouvelle édition (1980), p6.

⁷ - نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص ، المركز الثقافي العربي، ط5(2000م)، ص25.

⁸ - محمد أركون : الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، دار الساقى، ط2(2002م)، ص54.

الاحترام الحقيقي للنص قراءته بهذه المنهجيات، معتبرا إياها المناهج الكفيلة بالحفاظ على تطور هذا النص واستمراره، وتكشف عما به من جوانب ضعف⁽⁹⁾. بالإضافة إلى الثقة في منهج اللسانيات في دراسة النص الإسلامي هناك مبررات أخرى للأخذ بهذا المنهج منها:

1-1-2: إن مصداقية النص في منهج تحليل النصوص لا تنبع من دليل خارجي بل تكون من تقبل الثقافة له واحتفائها به، فما رفضته الثقافة لا يقع في دائرة النصوص وما قبلته فهو نص⁽¹⁰⁾، ومن المعلوم أن النص القرآني في زمن النزول وبعده أثر في الثقافة وفي مجراها، والكلام عن مصداقية النص بهذا الشكل يحيلنا إلى الوصف الذي أورده نصر حامد أبو زيد حينما قال هو "منتج ثقافي" وهنا نجد إشكالا بالنسبة للتصور الإسلامي الذي يعتبر مصداقية النص في مصدره وفي ذاته؛ فمصدره الإلهي سرّ مصداقيته، هذا الاعتراض يراه أبو زيد صادرا عن تفكير مثالي اصطلح عليه "الديالكتيك الهابط"⁽¹¹⁾.

1-1-3: طبيعة النظر إلى النص القرآني؛ أي ينبغي أن ننظر إليه كنص لغوي وليس ككتاب تشريع وخطاب إلهي يتعالى على الثقافة. يقول نصر حامد أبو زيد: "درس اللغويون والنحويون النص القرآني وظلوا رغم ذلك لغويين ونحاة، قد يقال إن النص القرآني نص خاص، وخصوصيته نابعة من قداسته وألوهية مصدره لكنه رغم ذلك يظل نصا لغويا ينتمي للثقافة خاصة"⁽¹²⁾. وبطبيعة الحال إذا كان نصا لغويا فالمنهج الذي يلزم دراسته هو منهج التحليل اللغوي الذي تمثله اللسانيات الحديثة.

1-1-4: موضوع الدرس يفرض منهجا معينا بطبيعة الحال، وموضوع الدرس هو "النص الإسلامي" والمتمثل في الكتاب والسنة خاصة، وكلاهما استمر خلال فترة النبوة أي مدة ثلاثة وعشرين سنة، هذا النزول المنجم للقرآن الكريم خلال هذه المدة، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الموزعة على هذه المدة أيضا هي في نظر دعاة القراءة المعاصرة للنص الإسلامي فترة "التشكل" أي تشكل النص، سواء القرآني أم النبوي، وحينما نقول التشكل فهذا ما يؤكد تاريخيتهما وإمكانية دراستهما في ضوء مناهج البحث اللغوي بل يصبح الأمر ضرورة إذا ما اعتبرنا نصوصا لغوية⁽¹³⁾.

انطلاقا من هذه المبررات وغيرها تأسست الدعوة إلى توظيف المناهج اللسانية في قراءة النص الإسلامي.

1-2 : المقاربة الإبيستمولوجية (الدلالة) الإبيستمولوجيا (Epistimologie) كلمة يونانية مركبة من كلمتين: إبستميا (Episteme) وتعني العلم، ولوغوس (Logos) ولها عدة معان في العربية

⁹ - نصر حامد أبو زيد : الإمام الشافعي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3 (2003م) ص9.

¹⁰ - نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص ، ص27.

¹¹ - المرجع نفسه والصفحة.

¹² - نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص ، ص18، 19.

¹³ - المرجع نفسه ، ص25.

منها: علم، نقد، دراسة، منهج، نظرية. وعليه يكون معنى اللفظ المركب "إبستمولوجيا" يدل على العلم، أو نقد العلم، أو الدراسة النقدية للعلم، أو فلسفة العلم... كل هذه المعاني تدل عليها كلمة "إبستمولوجيا"⁽¹⁴⁾. وهناك من ترجمها مصطلحا عليها "العلوميات"⁽¹⁵⁾، كما أن الدكتور طه عبد الرحمان سعى إلى أسلمة هذا مصطلح فاصطلح عليه "فقه العلم"⁽¹⁶⁾.

ويبدو من خلال هذا المعنى اللغوي لكلمة "إبستمولوجيا" أنها مرتبطة بالعلم كما أنها مرتبطة بالفلسفة. فهي مرتبطة بالعلم؛ لأن العلم هو موضوعها، ومرتبطة بالفلسفة من جهة كونها ممارسة فلسفية أو مناقشة فلسفية لمسائل العلم، ولهذا هناك من اصطلح عليها "فلسفة العلم".

وفي ضوء ما ذهب إليه باشلار وضعت التعريفات الاصطلاحية لـ "الإبستمولوجيا" مع بعض الفوارق بين المدرسة الفرنسية وغيرها؛ فمن أشهر التعريفات لكلمة "إبستمولوجيا" تعريف أندري لالاند (A. Lalande) الذي يقول فيه: "هي الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم وفروضها ونتائجها بقصد تحديد أصلها المنطقي لا النفسي وبيان قيمتها وحصيلتها الموضوعية"⁽¹⁷⁾.

فهذا التعريف يبين لنا أن "الإبستمولوجيا" عملية نقد تصاحب العملية العلمية في مختلف أطوارها ومراحلها.

1-2-1: مبررات التوظيف: يعتبر الدكتور محمد عابد الجابري أبرز النماذج العربية التي انخرطت في القراءة المعاصرة للنص الإسلامي، والأكثر التزاما بالمنهج الإبستمولوجي كمنهج قراءة. صحيح أن غيره من المفكرين وظفوا هذا المنهج لكنهم لم يثبتوا عليه وحده.

أما الدكتور محمد عابد الجابري فقد التزم المنهج الإبستمولوجي في مشروعه نقد العقل العربي. وهنا ينبغي التذكير بأن توظيف هذا المنهج عند الجابري تم تسليطه على النص التراثي فقط دون نصوص الوحي. والمنهج الإبستمولوجي كما هو معروف عند رواه خاصة في المدرسة الفرنسية يستعمل آليات خاصة به أهمها تصنيف المعرفة إلى علمية وعامية، وعلى أساس هذا التصنيف يتم تأسيس آلية أخرى من آلياته وهي آلية القطيعة المعرفية. التي تعمل على قطع الصلة بما هو معرفة غير علمية، والإبقاء على العلاقة مع المعرفة العلمية، وهذا لتطويرها واستثمارها بفعل عملية النقد التي هي الممارسة الإبستمولوجية.

1- علي حسين كركي : الإبستمولوجيا في طور الفكر العلمي الحديث ، المكتب العالمي ، للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، ص9.

15- غاستون باشلار : العقلانية التطبيقية ، ترجمة بسام الهاشم ، أنظر التمهيد الذي وضعه المترجم ، ص10.

16- طه عبد الرحمان : تجديد المنهج في تقويم التراث ، ص31.

17- André Lalande: Vocabulaire Technique et critique de La philosophie, Presses universitaire de France Paris, P293.

من هنا يبدو المنهج الإستيمولوجي منهاجا انفصاليا وليس اتصاليا؛ فهو ينظر في موضوعات من جهة ما هي موضوعات له، ومن جهة ثانية لا لكونها أمور ثابتات بل بهدف تحويل ثابتها إلى متحرك. وفي هذا نجد الجابري يعرف بمنهجه فيقول بأنه: "منهج تحليلي؛ أي ينطلق من النظر إلى موضوعاته لا بوصفها مجرد مركبات، بل بوصفها بنى، وتحليل البنية يعني كشف الغطاء عن العلاقات القائمة بين عناصرها بوصفها منظومة من العلاقات الثابتة في إطار بعض التحولات، وتحليل البنية معناه القضاء عليها بتحويل ثوابتها إلى متحولات ليس غير. وبالتالي التحرر من سلطتها". وهذا ما يصطلح عليه الجابري "التفكيك" (18). يقول الجابري هذا على الرغم من أنه يحدد آليتين اثنتين في قراءته، يفترض فيهما المحافظة على الاتصال وليس الانفصال. فهو يعتمد على: الموضوعية والمعقولة.

أما الموضوعية؛ وهي شرط إستيمولوجي فتعني بتحقيق قدر كاف من المسافة بين الذات والموضوع بما يتيح رؤية الموضوع كما هو، وأما المعقولة فهي مطاوعة المنهج للموضوع، وعلى هذا الأساس يحسم الجابري مسألة المنهج ويجعلها خاضعة لطبيعة الموضوع. ولكن الموضوع هو التراث الإسلامي أما المنهج فهو منهج غير إسلامي إنه المنهج الإستيمولوجي (19). ولهذا يلتمس الجابري عدة مبررات لتوظيف هذا المنهج في قراءة التراث الإسلامي. كل هذه المبررات تتمحور حول مبرر رئيس هو:

1-1-2-1: عدم كفاءة المناهج الأخرى. فالمناهج التي قرىء بها النص التراثي متنوعة بعضها غربي وبعضها الآخر إسلامي وبعضها إستشراقي. فقد درس هذا النص دراسة إسلامية تقليدية، كما درس داخل البلاد الإسلامية بمناهج أخرى غير إسلامية كالمناهج الماركسي. أما دراسته من طرف غير المسلمين فتتمثلت في المنهج الإستشراقي. وكل هذه المناهج في نظر الدكتور محمد عابد الجابري لم تغلح في قراءة النص التراثي قراءة فعالة موفقة، ومن ثم لابد من منهج بديل.

1-2-1-2: فالمنهج الإسلامي في صورته السلفية درس النص التراثي ولكن بطريقة تقليدية، وقد اصطلح الجابري على النتيجة التي أفضى إليها هذا المنهج بـ: "الفهم التراثي للتراث" (20)؛ لأنها نتيجة أو رؤية لم تزدد على ترديد ما قاله القدامى دون زيادة أو نقصان، ويحدد الجابري الطابع العام لهذا المنهج بأنه: "الإستنساخ والانخراط في إشكاليات المقروء والإستسلام لها" (21). ولما كان هذا هو طابعه فهو منهج لم يفلح في تحقيق ما هو منوط به؛ إذ الغرض من دراسة التراث هو كيفية الاعتماد عليه في العملية النهضوية، وكيفية الإجابة على سؤال النهضة انطلاقا من النص التراثي؛ أي باتخاذ مرجعية للإجابة على هذا السؤال. لكنه بهذه الكيفية يبدو غير موفق في نظر الجابري خاصة وأن محاولته هذه موسومة أيضا بالانتقائية وبكاء الماضي. يقول الجابري: "المنهج السلفي – بالمعنى الواسع

18- محمد عابد الجابري : التراث والحداثة ، ص47.

19- وهذه إحدى المحطات التي انتقد فيها الجابري لوقوعه في المفارقة.

20- الجابري : التراث والحداثة ، ص15.

21- المرجع نفسه ، ص26.

لكلمة سلفية – منهج انتقائي يسعى إلى تأكيد الذات أكثر من سعيه إلى أي شيء آخر. وهو في الأعم الأغلب منهج خطابي يمجّد الماضي بمقدار ما يبكي الحاضر، ومن هنا تظل " الذات " التي يريد تأكيدها هي "ذات" الماضي الذي يعاد بناؤه بانفعال تحت ضغط ويلات الحاضر وانحرافاته "(22).

ويفهم من هذا أن أصحاب هذا المنهج لم يستوعبوا الإشكاليات المعاصرة، والتحديات التي تجابهها الأمة على مستوى وجودها الحضاري، ومن ثم ضرورة إيجاد صيغة لتوظيف هذه المرجعية المتمثلة في النص التراثي. ومن ثم فهذا المنهج في نظر الجابري أدى إلى آفتين اثنتين وعمل على تكريسهما في واقع الثقافة الإسلامية، التي هي في أمس الحاجة إلى طرح جديد بعيد عن الصورة التقليدية. هاتان الآفتان هما: غياب الروح النقدية، وفقدان النظرة التاريخية(23). والروح النقدية هي الوظيفة الإبتيمولوجية التي تكشف عما هو تاريخي وتميزه عن غير التاريخي، كما أنها تكشف عما هو علمي وتميزه عن غير العلمي، كما أنها تفصلنا في عملية قراءتنا للماضي عنه وتبقي على مسافة بيننا وبينه. هذه الأمور أسس لأي مشروع نهضوي، والمنهج السلفي لا يتوفر عليها. أما فقدان النظرة التاريخية فهو عدم مراعاة البعد الزمني للخطاب التراثي في المنهج السلفي، فهو منهج حسب الجابري يجعل صاحبه يعيش بأفكار الماضي، بل يسحب بهذافيره فيلغي الحاضر والمستقبل، وهذا يتعارض مع طبيعة المشروع النهضوي. من هنا يرى الجابري عجز هذا النموذج، وعدم الاعتماد عليه في القراءة المعاصرة للنص التراثي.

1-2-3: أما المنهج الماركسي ومحاولة تطبيقه في قراءة التراث، فقد كانت تلك محاولة الباحثين الماركسيين العرب مثل: حسين مروّة، صادق جلال العظم... وغيرهما، وهو منهج ثبت عجزه حسب الجابري؛ لأنه من جهة لم يأخذ الماركسية كمنهج بل أخذها كمقولات، ومن جهة ثانية وقع في تناقضات في هذه المسألة. يقول الجابري عن هذا المنهج: "المحاولات القليلة التي تتبنى الرؤية الماركسية لا تسترشد بها كمنهج، بل تأخذ الماركسية في أغلب الأحيان كمقولات وقوالب جاهزة جامدة، فماذا يفيدنا تصنيف الفكر القديم أو الحديث إلى اتجاهات "مثالية" وأخرى "مادية" إذا كنا سنقف "مستريحين" عند حدود هذا التصنيف؟. إن مثل هذه المحاولات لا تؤدي – في أحسن الأحوال – إلا إلى "البرهنة" على "صحة" هذه المقولة أو تلك، لا إلى فهم صحيح واعي للمسائل المعالجة وسياق تطورها واتجاهها "(24).

هذا الكلام قاله الجابري عن الماركسية قبل سقوطها وتراجعها كفلسفة حديثة لكن المنهج الماركسي هذه سمته، وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلته ينهزم أمام غيره من المناهج المنافسة له، فهو منهج جامد عند مقولات ماركس رافض لكل محاولات التجديد. ولذلك نجد صادق جلال العظم ينكر على الذين حاولوا التجديد داخل الماركسية، الأمر الذي جعل البعض ينعت فكر هذا الأخير بالدوغمائية التي كان يعيبها على الفكر الديني، وأن

22- المرجع نفسه، ص42.

23- المرجع نفسه، ص26.

24- محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، ص42.

الفكر الإنساني بلغ الذروة في نظره مع كارل ماركس، وهذا ما يستبعد كل محاولات التجديد، فالحقيقة ما نطق به المعلم والمؤسس دون غيرها وهذا ما أدى إلى تشييء الخطاب الماركسي (25). وما دام المنهج الماركسي سمته الجمود، فلا يمكن أن يعتمد كمنهج في قراءة النص الديني؛ لأننا نسعى إلى قراءة حيوية تمكننا من إنجاز قراءة معاصرة للتراث، نتمكن بواسطتها من معالجة إشكالية النهضة لا مجرد تصنيفات جامدة، وبالتالي فهذا المنهج لا يصلح كبديل.

1-2-1-4: أما المنهج البنيوي فيراه الجابري غير صالح لقراءة النص التراثي، هذا المنهج في نظر الجابري لا يمكن الاعتماد عليه؛ لأنه يهمل البعد التاريخي كما أنه يخضع المتغير إلى الثابت. يقول الجابري عن المحاولات الرامية إلى تطبيق هذا المنهج: "نحن نعتقد أن مثل هذه المحاولات لا يمكن أن تؤدي إلا إلى طريق مسدود، إلا إلى تكريس الانحطاط والجمود بدعوى إخضاع المتغيرات إلى الثوابت التي تحكمها. إن النظرة البنيوية باهتمامها بالكل أكثر من اهتمامها بالأجزاء في إطار الكل الذي تنتمي إليه ضرورية لاكتساب رؤية أشمل وأعمق، ولكنها وحدها لا تكفي" (26).

ويستشف من هذا الكلام عدة أمور؛ فمن جهة المنهج البنيوي لا يمكن أن يعتمد عليه لأنه يخضع المتغيرات للثوابت التي تحكمها؛ والذين أخذوا بالتحليل البنيوي قد آلت رؤيتهم إلى ضياع المعنى، بينما قراءة الجابري كانت لها رؤية أخرى لم تلغ المعنى وإنما دعت إلى القطيعة معه. من جهة أخرى القراءة البنيوية في نظر الجابري غير مرفوضة كلية، بل ضرورية من جهة كونها تساعد على تكوين رؤية أشمل وأعمق، وهذا عند الجابري يقتضي شيئاً آخر وهو المزاوجة بينها وبين النظرة التاريخية، النظرة التي تكتشف العوامل التي الفاعلة والموجهة لها (27).

وهذا الكلام أيضاً يستشف منه التركيز على الخلفية المعرفية من خلال الكشف عن العوامل التاريخية المؤثرة في المسألة التي تكون محل الدراسة، وهذه المهمة مهمة إستراتيجية بحتة. والذي يهمنا في هذا المقام أن المنهج البنيوي منهج لا يمكن الاعتماد عليه في قراءة النص الإسلامي حسب الجابري مالم يكن ممزوجاً بالنظرة التاريخية، فلا يمكن الأخذ به شأنه في ذلك شأن المنهجين السابقين السلفي والماركسي.

1-2-1-5: أما المنهج الإستشراقي فمنهج متداول أيضاً في دراسة النص التراثي، ولكنه منهج خارج البيئة العربية الإسلامية فهذا المنهج أيضاً لا يفي بقراءة منشودة للنص التراثي في نظر الجابري وذلك لعدة أسباب أشار إليها الجابري منها:

- أنه يعالج التراث معالجة خارجية.
- أنه منهج مؤدلج (28).

25- علي حرب ، نقد النص ، المركز الثقافي العربي، ط2(1995م)، ص134.

26- محمد عابد الجابري : التراث والحداثة ، ص43.

27- المرجع نفسه والصفحة.

28- المرجع نفسه والصفحة.

فالسبب الأول – معالجة التراث من خارجه – جعله ظاهرة تاريخية، وهذا ما أشار إليه الجابري بأنه جعل التراث هناك لا هنا. وبالتالي مهما يكن الأمر فإنه لا يفيد العربي المعاصر الذي كان اهتمامه بالتراث أساساً لمعالجة إشكالية النهضة، فإذا كان الإستشراق قد وضع التراث بعيداً عن العصر، فهذا المنهج لم يخدم الغاية ابتداءً. أما السبب الثاني – خضوع المناهج الإستشراقية للإيديولوجيا – فهو أمر جلي؛ فالإستشراق تحرك في دائرة المركزية الأوروبية، التي تنظر إلى غيرها إن كانت إيجابية على أنها امتداد لها، وإن كانت سلبية فتنسب إلى الغير، وهذا أمر إيديولوجي محض. ولا يخضع للمعايير المعرفية التي ينبغي أن تتعامل مع الظواهر المدروسة كظواهر علمية⁽²⁹⁾.

من خلال ما تقدم يبدو أن مبررات الأخذ بالإبستمولوجيا كمنهج بديل تتمحور حول مبرر رئيس هو عدم كفاءة المناهج الأخرى الأمر الذي جعل الجابري يفكر في وضع منهج أراد من خلاله عصنة التراث خلافاً للمنهج السلفي الذي أراد تتريث العصر. وخلافاً للمنهج الإستشراقي الذي أراد تتريث التراث مرة أخرى. وخلافاً للمنهج الماركسي الذي كان يركز على التصنيف، تصنيف ما هو مادي وما هو مثالي. وخلافاً للبنىوية التي تهمل في بعض مستوياتها المتغيرات، ومنه فمنهج الجابري يعتمد هذه المناهج كلها في الإطار العام للإبستمولوجيا. من خلال كونها لها علاقة بتخصصات معرفية عديدة مثل: علم المناهج، وتاريخ العلوم، ونظرية المعرفة... إلخ، وهذا ما نستنتجه من وصف الجابري لمنهجه بأنه ينصب على: "العلاقات الثابتة في بنية ما بهدف تحويلها إلى لا بنية إلى مجرد تحويلات، وهذا ما يندرج كما هو واضح تحويل الثابت إلى متغير والمطلق إلى نسبي واللاتاريخي إلى تاريخي"⁽³⁰⁾.

1-3- المقاربة الأنثروبولوجية: (الدلالة). ينظر إلى معنى كلمة أنثربولوجيا من زاويتين: الزاوية اللغوية، والزاوية الاصطلاحية. ففي اللغة كلمة "أنثربولوجيا" كلمة معربة وليست عربية، بل هي كلمة يونانية مركبة من كلمتين (Antropos) وتعني الإنسان و (Logia) وتعني علم أو دراسة وبذلك يصبح معنى كلمة أنثربولوجيا: علم الإنسان أو دراسة الإنسان⁽³¹⁾، وهي شائعة في اللغات الأوروبية الحديثة بهذه الصيغة ففي الفرنسية نجد كلمة (Anthropologie) وفي الإنجليزية (Anthropology) وعن هاتين اللغتين خاصة تم تعريب المصطلح فصار شائعاً في اللغة العربية كما هو "أنثربولوجيا".

أما من جهة الإصطلاح فـ " الأنثربولوجيا: "علم يهتم بالجنس البشري فيدرس أجسام أفراده، ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم وكل ما ينتجونه سواء أكان مادة أم علاقة

1- يشير الدكتور الجابري إلى أن المنهج الإستشراقي تمثل في ثلاثة مناهج هي: المنهج التاريخي، المنهج الفلوجي، منهج الذوق الفردي. أنظر كتابه التراث والحداثة، ص 27، 28.

³⁰- محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، ص 47، 48.

³¹- كميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي الإجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون ط1 (2000)، ص 67.

اجتماعية أم فكرة" (32). إن ما يلاحظ على هذا التعريف أنه تعريف وصفي عام إذ ذكر كل ما تتعلق به الأنثروبولوجيا وتهتم بدراسته في عالم الإنسان من أمور مادية أو معنوية؛ الأمور المادية كالناحية الجسمية، والأمور المعنوية كالثقافة، وهذا التقسيم هو الذي وضعت على أساسه تعريفات اصطلاحية للأنثروبولوجيا في بعض المعاجم الغربية، ففي معجم لاروس ورد أن الأنثروبولوجيا نوعان: الأنثروبولوجيا السوسيوثقافية (Anthropologie Sociale et culturelle) وهي التي تهتم بدراسة العقائد، والتقاليد والفوارق في المجتمعات الإنسانية، والنوع الثاني هو الأنثروبولوجيا الطبيعية (Anthropologie physique) وتهتم بدراسة الإنسان في بعده الجسماني ولذلك فهي تتقاطع مع البيولوجيا حتى عرفت بالأنثروبولوجيا البيولوجية (Anthropobiologie) وتهتم كما ذكر بالإنسان في بعده الجسماني، من جهة القد، اللون، شكل الأنف، شكل العينين، وزمرة الدم... (33).

من خلال ذكر هذين النوعين للأنثروبولوجيا كقسمين أساسيين لهذا العلم، يتحدد لنا بدقة تعريف الأنثروبولوجيا فهي دراسة الإنسان من جميع أبعاده: النفسية، الاجتماعية الثقافية، البيولوجية، مع التركيز على رصد محطات التطور على مستوى كل بعد من هذه الأبعاد. وبناء على ذلك تتقاطع الأنثروبولوجيا مع عدة علوم أخرى طبيعية وإنسانية. كما يتجلى من ذكر هذين النوعين أيضا موضوع الأنثروبولوجيا؛ فهو محاولة الإجابة عن مجرى التطور الإنساني من الناحيتين البيولوجية والثقافية. وما هي المبادئ التي تحكم هذا التطور؟ (34). طبعاً بيان هذه المبادئ ينظر إليها نظرة وضعية بحثية بعيدة عن التصور الديني؛ وذلك لأن الأنثروبولوجيا في نشأتها كعلم حديث ترتبط ارتباطاً شديداً بعلم الاجتماع المنبثق من رحم الفلسفة الوضعية.

من جهة ثالثة بالنسبة للنوعين السابقين الذين ذكرهما معجم لاروس، من خلالهما يبدو أن الأنثروبولوجيا المعتمدة في القراءة المعاصرة هي الأنثروبولوجيا الثقافية؛ لأنها هي التي تهتم بالمعتقدات والأديان، إذ الأديان من قبيل الظواهر الثقافية في التصور الوضعي. ولذلك تم الأخذ بها أو الاعتماد عليها في قراءة النص الديني عموماً والإسلامي خصوصاً.

1-3-1- مبررات توظيف المنهج الأنثروبولوجي: قبل أن يتحدث الذين يحبذون توظيف المنهج الأنثروبولوجي في قراءة النص الإسلامي عن مبررات الأخذ بهذا المنهج، يتحدثون عن المناهج التي سبقت منذ اللحظة الأولى لتاريخ هذا النص، وإذا أردنا الوقوف مع دعاة هذا المنهج فإننا نجدهم قسّموا المناهج السابقة إلى قسمين أساسيين: أولهما منهج المسلمين بشكل عام ووسم بمنهج أهل التسليم والإيمان، وهو منهج دفاعي، يؤسس للدفاع عن النص وتمجيده، والثاني هو منهج المستشرقين ووسم بمنهج أهل الطعن في موثوقية النص، وهو منهج يؤسس للتشكيك في هذا النص (35).

32- كميل الحاج: الموسوعة الميسرة، ص 66.

33- Le petit Larousse , p69.

34- طلعت إبراهيم لطفي، مدخل إلى علم الاجتماع، دار غريب، القاهرة، بلا تاريخ، ص 48.

35- المنصف بن عبد الجليل وآخرون: في قراءة النص الديني، الدار التونسية للنشر، بلا تاريخ، ص 46، 47.

هذا التقسيم يؤكد وجود منهجين في دراسة النص الديني الإسلامي كلاهما يسير في خط معاكس للآخر، الأمر الذي يجعل من عملية القراءة عملية إيديولوجية لا عملية علمية، ومن ثم يحكم على هذين المنهجين بعدم الصلاح فهمًا: "لا يصلح أن يكونا مدخلا لدراسة النص القرآني؛ لأنه نص مشكلي تحتاج معالجته إلى أناة وصبر كبيرين، وفكر نقدي يخشاه أهل الموقف الأول ويلبسه أهل الموقف الثاني بالأيديولوجيا"⁽³⁶⁾. ومادام المنهجان قد فشلا معا فأي منهج يمكن أن يعول عليه في هذه المهمة الصعبة؟ لقد جاءت الإجابة على هذا التساؤل بأن المنهج المعول عليه هو المنهج الأنثربولوجي⁽³⁷⁾.

من هنا نستنتج أن أحد مبررات توظيف هذا المنهج هو عجز وعدم كفاءة المنهج الإسلامي التقليدي من جهة، وعدم كفاءة المنهج الإستشراقي من جهة أخرى، ولذلك كانت الدعوة إلى المنهج الأنثربولوجي باعتباره المنهج البديل.

1-3-2: علاقة النص بالثقافة، وهي العلاقة التي يعاتب فيها دعاة القراءة المعاصرة الفكر الديني على أساس أن هذا الأخير يرى أن النص الديني (=الوحي) متعالى عن الثقافة مستقل المصدر، فهو لا بشري ولا تاريخي، وهو الذي يشكل مرجعية الثقافة الإسلامية، بينما القراءة المعاصرة ترى ومن زاوية أنثربولوجية أن هذه الرؤية غير سوية وأن النص تحكمه بالثقافة علاقة جدلية يتعذر في ضوءها الفصل بين النص والثقافة، ويترتب على ذلك أن كل محاولة للفصل بينهما هي محاولة تعسفية⁽³⁸⁾.

هذا التداخل في منظور القراءة المعاصرة يعتبر من أهم مبررات القراءة الأنثربولوجية للنص الإسلامي، وقد تأسس هذا المبرر لعدة أمور منها: طبيعة ظهور النص، الوحي والثقافة، وظيفة الدين.

أما طبيعة ظهور النص فهي في نظر القراءة المعاصرة مجردة من البعد الغيبي، بل تركز على الأحداث التاريخية، ولذلك كان التركيز على أسباب النزول كعلل مؤثرة، فمنهم من يقول: "ظهر النص الإسلامي إجابة عن أسئلة شتى طرحتها الثقافة في المجتمع العربي الإسلامي الأول"⁽³⁹⁾. واعتمدت القراءة الأنثربولوجية في هذا على عدة أمور منها: نشأة النبي صلى الله عليه وسلم، التي لم تختلف في نظرهم عن نشأة أترابه من شباب مكة، ومنها تبلور مواقف قبل البعثة جسدت الحاجة إلى التغيير في العقيدة والمعاملات؛ أي في الثقافة بالمفهوم الأنثربولوجي.

أما عن علاقة الوحي بالثقافة، وهي المسألة الثانية المتفرعة عن مبرر علاقة النص بالثقافة، فإن القراءة المعاصرة تعتبر الوحي ومن منظور أنثربولوجي ثقافة. يقول نصر حامد أبو زيد: "إن القول بأن النص منتج ثقافي يكون في هذه الحال قضية بديهية لا تحتاج

³⁶ - المرجع نفسه ، ص48.

³⁷ - المرجع نفسه ، ص42.

³⁸ - نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص ، ص 24.

³⁹ - المنصف بن عبد الجليل : في قراءة النص الديني ، ص42.

إلى إثبات⁽⁴⁰⁾ ومادام كذلك فدراسته تتم في إطار هذه الثقافة التي أنتجت، والمنهج الأصلح لذلك عندهم هو المنهج الأنثربولوجي.

- أما عن وظيفة الدين فإن هذا المنهج حصرها في عدة أمور منها:
- الإجابة على الأسئلة التي يطرحها المحيط على الإنسان.
- أداء وظيفة إجتماعية وإيديولوجية معا.
- تكوين نظام خاص داخل أنساق الإجابات الأخرى⁽⁴¹⁾.

1-3-3: مكانة اللغة في البنية الثقافية، فما دام الإطار الذي نتحدث عنه هو الأنثربولوجيا الثقافية، فأهم عنصر من عناصر الثقافة هو اللغة، وهذه المكانة التي تحتلها اللغة هي التي تتيح للباحث الأنثربولوجي دراسة نص ما، أو ظاهرة ما أو حالة ثقافية معينة: "فعن طريقها تجمع وتسجل الثقافة، وتنقل من جيل لآخر فيمكن نموها وتقدمها، كما أن الثقافة تزود اللغة بمعظم مضموناتها، فهي التي تعطي الإنسان الموضوعات التي يتكلم عنها"⁽⁴²⁾. وهذا الكلام يثبت عدة أمور كلها في نظر أصحابها تبرر الأخذ بالمنهج الأنثربولوجي من خلال المنفذ اللغوي، ومن هذه الأمور:

- التأكيد على وضعية اللغة، فهي إبداع إنساني وليست وحيا متعاليا على عمل الإنسان، ومادامت كذلك فهذا المنهج هو الأصلح لدراستها، ومن خلالها إلى النص الإسلامي بما فيه النص القرآني. يقول نصر حامد أبو زيد: "القرآن يصف نفسه بأنه رسالة، والرسالة تمثل اتصال بين مرسل ومستقبل"⁽⁴³⁾. طبعاً وسيلة الاتصال هي اللغة، وبذلك يصبح النص الديني نصاً لغوياً مما يبرر دراسته أنثربولوجياً.
- اختيار النظام اللغوي الخاص بالمتلقي الأول وهو الرسول صلى الله عليه وسلم أي نزول القرآن الكريم بلسان عربي كما في قوله تعالى: "إنا أنزلناه قرآناً عربياً"^(يوسف/2) ونزوله بلغة أهل البيئة التي نزل بها يجعل منه نصاً لغوياً في منظور القراءة المعاصرة من خلال دخوله في عملية تناص (Intertextualité) والذي تجلى في مناقشة حجة الآخر⁽⁴⁴⁾.

1-3-4: عقيدة المخالف، ودراسة المعتقدات خاصة المعتقدات العربية في زمن الوحي وفي تلك البيئة فهي من مواضيع الأنثربولوجيا الثقافية، والباحث في دراسة النص الديني الإسلامي يجد نفسه ملزماً بدراسة معتقدات العرب في الجاهلية وديانتهم، وأساطيرهم، وذلك من أخبارهم وأشعارهم ومن القرآن أيضاً. ويهدف المنهج الأنثربولوجي من وراء طرح معتقد المخالفين من عرب وغيرهم كاليهود والنصارى والمجوس، يهدف من وراء ذلك إلى معرفة كيفية رد القرآن على هؤلاء من جهة، ومن جهة ثانية ما الذي

⁴⁰ - المرجع نفسه ، ص24.

⁴¹ - المنصف بن عبد الجليل : في قراءة النص الديني ، ص45.

⁴² - عاطف وصفي : الأنثربولوجيا الثقافية ، دار النهضة العربية (1971م)، ص27.

⁴³ - نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص ، ص24.

⁴⁴ - المنصف بن عبد الجليل : في قراءة النص الديني ، ص50.

ذكر القرآن وعماداً سكت من عقائد المخالفين؟ ، وهذا ما أدى إلى القول بأن: "النص القرآني لا يفهم إلا بالمرجع الثقافي الذي ما انفك يحاوره" (45).

1-3-5: دراسة الفقه وبيان الأحكام، فهذا الجانب الذي تكفل به علما في البنية الإسلامية هما: علم الفقه وعلم أصول الفقه، هذان العلمان في منظور القراءة المعاصرة لم يوفقا مطلقاً بل هما ممارسة أنثربولوجية وإن لم يذكر علماء الإسلام ذلك وإن أنكروا ذلك. ولذلك اعتبرت: " أنثربولوجية النص القرآني ظاهرة تتجلى خاصة في السلطة التي يقوم بها التشريع من النص القرآني والفهم" (46).

ثانياً

المقاربات المنهجية والتمهيد لإنزالها على النص الإسلامي

يمكن القول أن القراءة المعاصرة للنص الإسلامي قراءة منهجية بالدرجة الأولى، يمكن القول أيضاً أنها لم تمتحن المناهج المنقولة من حيث كونها الخيار المنهجي البديل. وما دامت هذه القراءة قراءة منهجية بالدرجة الأولى وعلى افتراض أن النص الإسلامي في حاجة إلى قراءة جديدة وفق المناهج المذكورة، فهل تم التمهيد لإنزال هذه المناهج بما يكفي لتصبح صالحة يمكن التعاطي وفقها مع النص الإسلامي؟

لقد تمت الإشارة من قبل إلى مبررات توظيف كل منهج على حده، والمتأمل في تلك المبررات يلتفت إلى عملية التمهيد لتوظيف هذه المناهج في قراءة النص الإسلامي، طبعاً هذا الأمر – الاستفادة من مناهج غير إسلامية – لا يخالف الإسلام من الناحية المبدئية، وإنما يخالفه إذا تجرد من الضوابط التي وضعها الإسلام، وصار يساوي بين الدين والتاريخ، وبين الوضعي والإيماني، وبين البشري والإلهي، أما إذا وضع كل شيء في نصابه وأعطى كل موضوع حقه، وتم الالتزام بالضوابط الشرعية فساعتها يكون أمراً مشروعاً، ألم يجعل الإسلام "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها"؟ (47).

لقد أدرك حملة التصور الإسلامي في الراهن مدى الحاجة إلى عملية التجديد، فراحوا يؤكدون على ضرورة هذا التجديد خاصة على مستوى المنهج، يقول الدكتور طه عبد الرحمان: " لا سبيل إلى حصول التجديد في اليقظة الإسلامية بغير طريق التوسل في تأطير وتنظيم وتأسيس هذه التجربة الإيمانية العميقة بأحدث وأقوى المناهج العقلية، وأقدرها على مدنا بأسباب الإنتاج الفكري، وليس يخفى أن القصور في هذا الباب هو الذي جعل هذه اليقظة تنحو مناحي أطمعت الخصوم في التعرض لها دون أن يجدوا من أصحابها من يقدر على معارضتهم بما يفهم ويلجم خصومتهم، ولو أن أهل اليقظة حصلوا ملكة منهجية، عمل

45- المنصف بن عبد الجليل : في قراءة النص الديني ، ص52.

46- المرجع نفسه ، ص58.

47- حديث رواه ابن ماجه، أنظر سنن ابن ماجه، دار إحياء التراث العربي بيروت(1395هـ/1975م)، ج2، ص1395.

التغلغل في تجربة الإيمان على فتح آفاقها، لتمكنوا من إقامة فكر إسلامي جديد يحصّن هذه اليقظة ويمنع عنها تقوّل القائلين وتحامل المغرضين" (48).

من خلال هذا الكلام فالحاجة إلى التجديد المنهجي بالنسبة للمسلم المعاصر حاجة ماسة، بل اعتبرت شرط حراسة هذه اليقظة الدينية، ولكن لابد لها أن تكون منضبطة شرعياً، وهذا ما أشار إليه الدكتور طه عبد الرحمان في هذا النص "التغلغل في تجربة الإيمان" لأنها بذلك تصير مناهج إيمانية وبهذا يتحدد لنا لماذا التمهيد لإنزالها على النص الإسلامي؟ إنه لعدة أسباب أهمها:

1-2- تباين الموضوع والمنهج. فالمنهج ينتسب إلى مجال ثقافي هو الثقافة الغربية، والنص هو النص الديني الإسلامي، والاختلاف بينهما متحقق على عدة مستويات؛ فعلى مستوى المبدأ النص في جانب من جوانبه إلهي المصدر وبذلك فهو نص ديني، أما المنهج فهو وضع بشري. وعلى مستوى الغاية النص يسعى إلى ربط الشهادة بالغيب، والمنهج يريد الفصل بينهما، النص الديني يهدف إلى إسعاد الإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة. والمنهج يريد التركيز على الدنيا فقط. كما أن التباين بينهما متحقق على مستوى مادة الدراسة ففي الإطار الإسلامي مادة الدراسة هي نص الوحي والنص الشارح له (= التراث). أما في الإطار الغربي مادة الدراسة هي الموروث الفلسفي.

فالتباين المتحقق على هذه المستويات أحد الحواجز التي تحول دون تعميم المناهج الحديثة إلا إذا تم التمهيد لإنزالها على النص الإسلامي؛ بأن يتم تكييفها وفق مبدأ وغاية النص الإسلامي مثلاً، أو يتم البحث عن العناصر المشتركة بين هذه المناهج والموضوع المدروس بما يتيح الاعتماد عليها في عملية القراءة، كما استعمل علماء الإسلام في القديم المنطق الأرسطي بناء على العناصر الموضوعية التي تضمنها المنطق. والتي لا تخالف النص ولا تخالف العقل. من الأمور التي تقتضي التمهيد لهذه المناهج إذا كونها غريبة عن النص، وإن كانت القراءة المعاصرة تلتمس التبرير باسم العلم؛ أي أن هذه المناهج تنتسب إلى العلم الحديث الذي حقق قدراً كافياً من الموضوعية تمكّنه من استعماله حتى خارج إطاره.

لكن هذا الكلام لا يؤخذ على إطلاقه؛ فهذه المناهج يمكن أن تكون ممارسة إيديولوجية، وبالتالي وقعت في عين ما حذرت منه، ويقوى هذا الاحتمال خاصة إذا عرفنا أنها مناهج المستشرقين، ومواقفهم من الإسلام وتراثه مواقف معروفة بالعداء. يقول الدكتور طه عبد الرحمان: "لكن المستشرق وإن زانه علم منبثق من أصول تراثه، وتطلع إلى أن يستخدم هذا العلم في الكشف عن غير تراثه فلا يجوز أن يطمئن أصحاب هذا التراث إلى أحكامه، حتى يقوم الدليل القاطع على حصول أسباب الاطمئنان، وليس ذاك لأن المستشرق ما يفتأ يلبس على الغير، ويشكك فيما عنده وفيما ورثه كما وقع من بعضهم وإنما لأن المعرفة التي يحملها ليست من صنف المعرفة التي تولدت بها مضامين

48- طه عبد الرحمان : العمل الديني وتجديد العقل ، المركز الثقافي العربي ط 2 (1997)، ص 10.

التراث الإسلامي العربي وتكونت بها مقاصده "(49). من هنا فأحد العوامل التي توجب التمهيد كون هذه المناهج غريبة عن النص، بل وهي المناهج التي لا تخلو من خلفية؛ هذه الخلفية التي تقضي على الصبغة العلمية وبالتالي يزول المبرر الذي على أساسه اعتمدت.

2-2- حاجز اللغة: فهذه المناهج صيغت بلغات هي اللغات الأوروبية الحديثة، بينما النص عربي اللغة. هذا التباين اللغوي جعل عملية إنزال المنهج على النص الديني يتوسل فيها بعملية الترجمة، وهذه العملية تقتضي أمرين اثنين:

- إتقان اللغة المنقول منها.
- إتقان اللغة المنقول إليها.

وهي عملية ليست بالشيء اليسير، بل تقتضي جهدا جبارا عادة ما يكون جهد مؤسسات لا جهد أفراد. هذا وجه من وجوه الصعوبة، أما الجانب الثاني فهو عدم المعرفة بالعربية ولذلك نجد في الكثير من الأحيان المفاهيم الموظفة توّظف كما هي دون بحث عن مقابل لها في العربية، وعدم المعرفة باللغة العربية أوقع دعاة الأخذ بالمناهج المعاصرة في العبارة القلقة التي لا تستقيم والكلام العربي السليم، الفاقدة لأصول التبليغ في اللغة العربية (50) وعدم امتلاك اللغة العربية وهي اللغة المنقول إليها يحتم عملية تمهيد تتمثل أولا في إتقان هذه اللغة بما يمكن مستعملها من تبيين أي مصطلح ينقله إليها.

وفي هذا نجد الدكتور طه عبد الرحمان يعاتب الجابري على ترجمته الخاطئة حينما نقل نصا فرنسيا هو: "La logique est La physique de l'objet quelconque" والتي تأولها الجابري بقوله: "إن المنطق أو العقل هو في نهاية التحليل جملة من القواعد مستخلصة من موضوع ما، وهكذا فكلما توفر لدينا موضوع ذو خصوصية واضحة أمكن القول بوجود عقل أو منطق خاص" (51). هذا التأويل عابه الدكتور طه عبد الرحمان لسببين: أما الأول فهو عدم ذكر المصدر الذي أخذ منه، والثاني هو عدم دقة الترجمة ولذلك قال بأن المقابل العربي للعبارة السابقة هو: "المنطق يدرس كل الموضوعات أيا كانت، بمعنى أن القوانين التي يستخرجها ليست خاصة بهذا الموضوع أو ذاك، وإنما شاملة لكل الموضوعات كائنة ما كانت" (52).

وبهذا فالترجمة ليست دائما أمينة، الأمر الذي يقتضي التمهيد لعملية نقل المنهج، هذا التمهيد الذي يتمثل في إتقان اللغتين معا: الأصلية والمنقول إليها حتى يمكن تقادي الخطأ وحتى تكون الترجمة ترجمة دقيقة. ومن جهة أخرى الاعتماد على الترجمة لا يسلم من التجلي الأيديولوجي، بالإضافة إلى خصوصيتها ولفظيتها خلاف المنهج الذي اعتبر موسوما بالعقلانية، وهذا فيما يتعلق باللغة المنقول منها من هذين الوجهين؛ أعني صعوبة الترجمة، وتجلياتها الأيديولوجية تكون حاجزا لا بد من أخذه بعين الاعتبار خاصة إذا ما تعلق الأمر بالنص الإسلامي وبشكل أخص النص القرآني، ولهذا فالعملية تقتضي إجراء تمهيد به تكيف

49- طه عبد الرحمان : تجديد المنهج ، ص10.

50- المرجع نفسه والصفحة.

51- محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (1989م)، ص25، 26.

52- طه عبد الرحمان: تجديد المنهج ، ص43.

هذه المناهج مع مقتضيات النص الإسلامي. وهنا يمكن التساؤل كيف يتم هذا التمهيد بناء على ما تقدم من بيان ضرورته؟ يمكن تصور كيفية هذا التمهيد، إنه يقوم على عدة أمور منها:

2-2-1- إتقان اللغة العربية: لأن اللغة العربية هي اللغة التي قام عليها النص الإسلامي سواء النص القرآني أو النص النبوي أو النص التراثي، ولذلك لا يمكن لدارس النص الإسلامي والباحث فيه أن يبحث دونما علم بالعربية أو بزداد قليل فيها ولذلك كان علماء الإسلام يشترطون فيمن يبحث في النص الإسلامي أن يكون على قدر كاف من العلم باللغة العربية يؤهله إلى تفسير شيء من القرآن الكريم أو من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، أو حتى في مجال الاجتهاد من أجل استنباط حكم أو بناء قاعدة فقهية أو أصولية أو غير ذلك.

فاللغة العربية إذا شرط لا يمكن إغفاله بحال من الأحوال، والناظر في القراءة المعاصرة يجدها تشير إلى هذا الأمر، حيث تعتبر النص الإسلامي على أنه نص لغوي كسائر النصوص اللغوية، كما نجد محمد أركون يشترط على من يأخذ بالمناهج المعاصرة أن يقرأ بلغة من اللغات الأوروبية المعاصرة، وأنه من لم يستوف هذا الشرط فإنه غير مؤهل لخوض غمار البحث في الأنثروبولوجيا أو في أي علم من العلوم الإنسانية بالمستوى التي هي عليه الآن في الإطار الغربي، والمفارقة هنا أنه لم يشترط على من يبحث في النص الإسلامي أن يكون ممن يجيد اللغة العربية؟!، بل كثيراً ما يقف عند ترجمة بعض أقوال أو مقالات المستشرقين ويوظفها مترجمة دونما اشتراط للغة العربية، وحتى بعض الحداثيين العرب أنفسهم تكوينهم غير عربي، ويكتبون بغیر العربية، ومنهم محمد أركون نفسه الذي يكتب بالفرنسية ثم تترجم أعماله إلى العربية، وقد أشرت من قبل إلى مسألة الترجمة وما يصاحبها من عوائق تحول دون بلوغ الحقيقة، ودون إنجاز معرفية موضوعية.

وقد أشار الدكتور طه عبد الرحمان إلى هذه المسألة – إتقان اللغة العربية – على أساس أن العلوم الإسلامية صيغت باللغة العربية، ولذلك يجب إتقان هذه اللغة؛ لأن عدم إتقانها هو الذي تسبب في بعض النتائج التي توصلت إليها القراءة الحداثية كالنظرة التجزيئية التفاضلية⁽⁵³⁾. كما أن إتقانها يمكّن من معرفة علاقتها بالنص القرآني خاصة، وذلك ما يجعل النظرة اللسانية كما أخذ بها المنهج اللساني نظرة غير سوية لأنها لم تراعي طبيعة العلاقة بين النص القرآني واللغة العربية. من جهة أخرى إتقان اللغة العربية هو الذي يمكّن مستعمليها من بناء تصور معين للمناهج المنقولة، ويتم العمل على تكييف هذه المناهج مع طبيعة النص، وتصاغ صياغة أخرى وتستبدل مفاهيمها بمفاهيم عربية، وهكذا تكون قد قربت من النص الإسلامي وتم التمهيد لتطبيقها عليه أو قراءته بها فليست المناهج المنقولة مرفوضة لمجرد كونها منقولة، بل هي مرفوضة لأنها لا تتناسب والنص الإسلامي، بدليل أن المنطق وهو من العلوم المنقولة في القديم تم التمهيد له وتمت الاستفادة

⁵³ - طه عبد الرحمان: تجديد المنهج ، ص10.

منه في العلوم الإسلامية، وبدليل أن نتائج العلوم الطبيعية في العصر الحديث يستعان بها في بناء الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

2-2-2- إتيان المنهج الإسلامي. لأن إتيانه أمر كفيف بعدة أمور كلها تعين على عملية التمهيد لتطبيق المناهج المنقولة على النص الإسلامي، مثل:

- مدى الاكتفاء به ومدى الحاجة إلى غيره؛ وهذا في الإطار العام الذي يوجب اختيار المنهج بناء على طبيعة الموضوع، فالوقوف عند المنهج مرهون بإتيانه ومعرفته حق المعرفة، والدعوة إلى تجاوزه واستعارة مناهج أخرى موقوفة كذلك على إتيانه ومعرفته حق المعرفة. وعدم إتيان هذا المنهج هي التي جعلت الحكم عليه بالعجز، وقد مر بيان ذلك دونما تجريب لهذا المنهج، ولهذا نجد في بعض الأحيان مثلاً الحكم على علوم الحديث بأنها وصلت إلى غايتها، وأنها علوم نضجت واحتقرت، وأن منهج المحدثين صار مدعاة للسخرية⁽⁵⁴⁾. في حين أن هؤلاء النقاد، ودعاة القراءة المعاصرة لا أحد منهم مثلاً تحدث عن المنطق الصوري الذي اعتبر مولده كاملاً مع أرسطو، وأنه اعتبر علماً جامداً لا يفيد منذ عهد ديكارت ولذلك أبدل بالمنطق الرياضي، رغم ذلك لا تزال المقولات المنطقية متداولة في أدبياتهم وأحسب أن السبب هو عدم إتيان المنهج الإسلامي الذي من خلاله يعرفون هل هو جدير بالاعتماد أم أنه دون ذلك؟. لكن الحكم عليه بالعجز كان مسبقاً، دونما معرفة حقيقة هذا المنهج. ويرجع الدكتور طه عبد الرحمان عدم هذا الإتيان إلى سبب قوي هو عدم معرفة اللغة نفسها فيقول: " فكيف يصح إذا لمن لا يجيد لغة التراث أن يدعي لنفسه المقدرة على تقويمه؟ فمن أين يقع على حقيقة مضامينه وعلى كنه آلياته؟ ! " ⁽⁵⁵⁾.

- معرفة مواطن الصحة فيه ومواطن الخطأ. فلا يمكن معرفة ذلك إلا من خلال إتيان هذا المنهج، والهدف العام للقراءة المعاصرة يقتضي هذا؛ لأن الانتظام في المرجعية الإسلامية اقتضى منهجية معينة، ولكن قبل ذلك لابد من معرفة مواطن الصواب لاستثمارها، ومواطن الخطأ التي يمكن أن يكون وقع فيها المسلمون فيتم تجنبها. والمفارقة أننا حينما نعود إلى ما يقوله دعاة القراءة المعاصرة نجده مستساغاً لكن ما يطبقونه يخالفون فيه أقوالهم، فقد قالوا بضرورة العودة إلى المرجعية الإسلامية، ولكن عند التطبيق قالوا بالانفصال عنها، وقالوا عن أنفسهم بأنهم مجددون، ولكنهم لم يمارسوا التجديد بل مارسوا النقد والقطيعة، واعتبروا أعمالهم اجتهادات تحل محل اجتهادات الشافعي والإمام الشاطبي ولكنهم لم ينضبطوا بشيء من ضوابط الاجتهاد، ولذلك لم تتييسر لهم معرفة مواطن الصواب والخطأ في المنهج الإسلامي، وذلك أمر كاف في عدم قدرتهم على الحكم عليه بالعجز أو بعدم الصلاحية.

فلو أتقن المنهج الإسلامي لثم التعرف حقيقة على مدى قدرته بالنهوض بقراءة معاصرة للنص الإسلامي ، و لثم من خلال ذلك الإجابة على الأسئلة المطروحة في ساحة الفكر

⁵⁴- عبد الله العروي : مفهوم التاريخ ، المركز الثقافي العربي، ط3(1997م)، ج1، ص 213.

⁵⁵- طه عبد الرحمان: تجديد المنهج ، ص 10.

المعاصر، وإذا أدركت نقائص معينة في هذا المنهج ساعتها يمكن الاستفادة من مناهج الآخرين بما فيها المناهج المعاصرة، فيتم انتقاء ما يتلاءم مع النص المدروس وما ينسجم مع البناء العام للمنهج الإسلامي، فتكون العملية عملية تمهيد لإنزال هذه المناهج على النص الإسلامي.

2-2-3- إتقان المنهج الغربي. أي المنهج الغربي الحديث؛ فمن خلال إتقانه وقبل ذلك إتقان المنهج الإسلامي، وتجاوز حاجز اللغة، من خلال ذلك يتسنى استعمال هذه المناهج في مجال النص الإسلامي وليست هي التي تستخدم المؤمنين بها، وهذا الذي كان يقوله أصحاب المنهج اللساني عن اللغة بأنها توظفهم بقدر ما يوظفونها؛ لأن الإنسان حينما يفكر يفكر بلغة، وإتقان المنهج الغربي يتيح لمستعمليه في الوقت المعاصر معرفة عدة أمور منها:

- مدى التآلف والتنافر بينه وبين النص والمنهج الإسلاميين. وبناء على ذلك يتم التعرف على أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف فيتم التقريب بين أوجه الاتفاق، ويوحد بينهما، أما ما خالف المنهج الإسلامي فيتم طرحه، وهكذا يمكن التمهيد لإنزال هذه المناهج على النص الإسلامي، وهذه خطوة لا يمكن إنجازها إلا بمعرفة المنهج الغربي حق المعرفة.

- مدى الحاجة إليه؟ وهو أمر منوط بالأول فإذا كان المنهج الغربي في تنافر دائم مع النص الإسلامي فلا تكن هناك حاجة إليه، وإذا كانت هناك محطات تآلف فتلك هي المحطات التي تتحدد فيها الحاجة إلى هذه المناهج، وهذا أمر مرهون بإتقان هذا المنهج الغربي. أما إذا كان استعماله والدعوة إلى ضرورة توظيفه على أساس الإعجاب به فقط أو على أساس خلفية إيديولوجية ففي هذه الحال يتعذر استخدامه. أما إذا تم إتقانه وعرفت مواطن الصحة فيه ومواطن الخطأ فالإسلام لا يخشى الحق والصواب حتى وإن ظهر على يد مخالفه، وقد رد الدكتور طه عبد الرحمان بعض الآثار والنتائج التي توصلت إليها القراءة المعاصرة للنص الإسلامي معتبرا دعائها مقلدين فقال: "وحتى لو قدرنا أن المناهج الحديثة لا يضاهيها غيرها، ولا يبطلها مرور سير الزمن عليها، فهل ملك هؤلاء المقلدون خاصية تقنياتهما، وتفننوا في استعمالها، حتى جاز لهم أن ينقلوها إلى غير أصولها، فيخرجون التراث على مقتضاها ويفتون بإلغائه أو بحصره؟! " (56).

هذا إنكار عليهم كونهم لم يتقنوا هذه المناهج ورغم ذلك ينقلوها إلى المجال الإسلامي الذي ليس مجالها، ثم يحكم عليهم بعدم معرفتهم بهذه المناهج فيقول: "الواقع أن التمكن من هذه المناهج لم يكن من نصيبهم، ولا التفنن في استخدامها كان طوع أيديهم ولا ينكر ذلك إلا من هو دونهم تمكنا في العلم ودونهم تفننا في العمل، ولا أدل على ذلك من أنهم عاجزون عن الاستقلال عن تلك المناهج والإتيان بما يقابلها ولو على نمطها" (57).

56- طه عبد الرحمان : تجديد المنهج ، ص10.

57- طه عبد الرحمان: تجديد المنهج، ص11.

من هنا تبدو أهمية إتقان المنهج أي منهج إذا أريد نقله وإسقاطه خارج مجاله الثقافي. كما أن إتقان المنهج الإسلامي ورفع حاجز اللغة أيضا من الضروريات. من خلال المعرفة بهذه العناصر الثلاثة يمكن التمهيد لتوظيف هذه المناهج في الإطار الإسلامي؛ فعن طريق رفع حاجز اللغة يتم تفادي إيديولوجية الترجمة، وعن طريق إتقان المنهج الإسلامي تعرف مدى الحاجة إلى غيره، وعن طريق إتقان المنهج الغربي نعرف مدى إمكانية استعماله في قراءة النص الإسلامي.

ومن خلال ما تقدم تبين لنا أن هذه الآليات لم تراعى في القراءة المعاصرة، الأمر الذي أدى إلى تأسيس رؤية غربية عن الرؤية الإسلامية، وإلى تكريس نتائج تخالف الإسلام، وأهم هذه النتائج القول بتاريخية النص الإسلامي. وإذا كانت هذه العناصر هي التي تقوم عليها عملية التمهيد لإنزال المناهج الغربية على النص الإسلامي فهل تحققت أم لا؟ من خلال الإجابة على هذا التساؤل التي يجب أن تتبع من تتبع كتابات المشتغلين بالقراءة المعاصرة يمكن الحكم بأنها تحققت أم لا وبالتالي هل تم التمهيد لها أم لا؟.

فبالنسبة لشرط اللغة يمكن القول بأنه لم يتوفر بالقدر الذي يمكن دعاء القراءة المعاصرة من إنجاز قراءة معاصرة للنص الإسلامي ولا أدل على ذلك من:

- تخصص المشتغلين بهذه القراءة. فهؤلاء ليسوا ممن تخصص في الدراسات اللغوية أو في الأدب العربي، وإنما كانت تخصصاتهم في سائر فروع العلوم الإنسانية كالأنثروبولوجيا، أو في الفلسفة، أو التاريخ، أو علم الاجتماع، وحتى في الهندسة، وقل منهم من كان متخصصا في اللغويات، وهذا ما يجعل إتقان اللغة أمر غير متحقق. ومنهم من كان متخصصا حتى في العلوم التقنية. فقد كان محمد شحرور مهندسا وأحد الذين تناولوا بالدراسة النص القرآني ضمن كتابه "الكتاب والقرآن". والذي أراد فيه أن يقرأ القرآن الكريم قراءة تأويلية تقوم على أساس لغوي بالدرجة الأولى.

وقد آل كلامه إلى نتائج عبثية، اعتبرت لعب: "بنصوص القرآن المجيد لعبا عبثيا تضليليا" (58).

وهذا الكلام الذي يبدو فيه صاحبه منفعلا له ما يبرره فالتأويلات الفاسدة التي قام بها صاحب الكتاب والقرآن والتي أراد إقامتها على اللغة لا تستساغ حتى إذا قضي بتطور اللغة كما تتطور المادة الحية فمثلا: تأويله للجيب في آية الحجاب: "وليضربن بخمرهن على جيوبهن" (النور/24) فلا يفسر الجيب على أنه الصدر بل يفسره تفسيرات أخرى أباح من خلالها أن تظهر المرأة المسلمة ماعدا مواقع هي مستورة أصلا عند المسلمين وعند غيرهم (59)، وغير هذا كثير ولا شك أن سبب ذلك هو عدم إتقان العربية، بل عدم التخصص حتى في تخصص قريب منها أو قريب من العلوم الإسلامية.

58- عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: التحريف المعاصر في الدين، دار القلم ط1 (1997)، ص8.

59- محمد شحرور: الكتاب والقرآن، دار الأهالي، دمشق، ص607.

- لغة كتاباتهم. فالكثير منهم يكتب بغير العربية، وتلك نتيجة طبيعية للقراءة؛ أي أنهم يقرأون بغير العربية. ومادامت اللغة ملازمة للفكر، وترابطهما علاقة تأثير وتأثر يصبح الفكر مصبوغاً بصبغة تلك اللغة التي ليست هي اللغة العربية، ولذلك كانت معظم أعمالهم تعتمد على الترجمة، وقد تمت الإشارة إلى خطرهما، بل إن أركون كان يرى أن من يريد أن يقتحم مجال القراءة المعاصرة للنص الإسلامي فإنه يحتاج إلى منفي لغوي؛ أي لا يكتب بالعربية، وإنما بغيرها من اللغات الغربية الحديثة. وسواء كان الأمر ببعد تخصص هؤلاء المفكرين عن اللغة العربية وعن العلوم الإسلامية أو كتابتهم وقراءتهم بغير اللغة العربية، ففي الحالتين نجد أن عنصراً تمهيدياً - إتقان اللغة - مفقود لدى هؤلاء مما يجعل استعمال هذه المناهج وإخضاع النص الإسلامي لها من قبيل وضع الشيء في غير محله.

أما عن إتقان المنهج الإسلامي فهو أمر لم يتحقق كذلك؛ ذلك لأن دعاة القراءة المعاصرة لم يجربوا هذا المنهج، وبالتالي لم يتسن لهم معرفة مواطن الصحة فيه ومواطن الخطأ التي في ضوءها تتحدد الحاجة إلى مناهج أخرى. ولذلك إذا جئنا إلى وصف موقفهم من المنهج الإسلامي فقد تجلّى في نقده أكثر من أي شيء آخر وذلك بناء على:

- كونه منهجاً دينياً؛ فالفكر الديني من زاوية الحداثة التي تستند إليها القراءة المعاصرة تم تجاوزه، وصار الفكر السائد هو الفكر الوضعي الذي يعتمد على العلوم الحديثة، وترك الدين وعدم الاعتناء به أو الاعتماد عليه، وهذا من أهم الأهداف التي تسعى إليها الحداثة الغربية، وذكر منظروها أن سعيها منذ القرن السادس عشر كان بغرض تحقيق ما سمي بالخروج من الدين⁽⁶⁰⁾ فهذا الهدف الأكبر للحداثة الغربية الذي ظلت تدور في فلكه الحداثات الأخرى- إن جاز قول هذا - ومنها الخطاب الحداثي العربي المعاصر الذي يدعو على قراءة معاصرة للنص الإسلامي، فقد أهمل المنهج الإسلامي لا لشيء إلا لأنه منهجاً دينياً، بحجة أن العصر ليس عصر الدين بل عصر العلم.

في هذا المجال نجد أركون وهو يتحدث عن مفهوم "الحقيقة" أو "الدين الصحيح" يقول بأن الحداثة تعلمنا وتقول في هذا الموضوع بأن بنية الحقيقة على هذا النحو هي دوغمائية أي أنها تعتمد على أمور خارجة عن العقل البشري، وأن خروج هذه الحقيقة عن سلطة العقل ذلك ما يؤدي إلى تأزيم مفهوم "الحقيقة" في حد ذاته⁽⁶¹⁾، وفي هذا اعتراف بل ودعوة ضمنية إلى العزوف عن المنهج الديني، واللجوء إلى المناهج الحديثة لأنها مناهج خضعت للفحص العقلي، أما الأمور الدينية فإنها غير ذلك .

- كونه منهجاً قديماً. فهو منهج تقليدي لم يستوعب الإشكاليات المعاصرة، بينما المناهج المطبقة أخذت بأحدث النتائج و الكشوفات التي توصلت إليها المعارف الحديثة. ولكن ذات الخطاب يغفل أحياناً حينما لا يراعي ثبات هذه المعارف، بل حتى نزعة الحداثة التي نشأت

⁶⁰- محمد أركون: الفكر الأصولي، ص237.

⁶¹- محمد أركون: الفكر الأصولي، ص239، 240.

في البلاد الغربية وأحضان الثقافة الغربية العالمية تم تجاوزها وصارت النزعة السائدة الآن نزعة ما بعد الحداثة. وهذا ما يجعل انتقاد المنهج الإسلامي يجب أن يتم من داخله، وذلك يقتضي التمكن منه أولاً سواء كان المنهج الأصولي أو التاريخي أو الحديثي أو غير ذلك. أما عن إتقان المنهج الغربي فأحسب أن حملة الخطاب الحداثي يتفاوتون في ذلك، فأركون مثلاً ممن أتيح له الإطلاع على هذا المنهج والتمكن منه، لكن مشكلته أنه لم ينجز قراءات كاملة بقدر ما كان يثير إشكاليات في المجال الإسلامي.

خاتمة: مما سبق ومن خلال وقوفنا على المقاربات المنهجية التي توصلت بها القراءة المعاصرة في قراءة النص الإسلامي سواء أكان النص القرآني أو النص النبوي أو حتى النص التراثي نصل إلى النتائج التالية:

1- إن المقاربات المنهجية المتوسل بها من طرف القراءة المعاصرة للنص الإسلامي تمثلت في محاولة استثمار العلوم الإنسانية التي انتصرت في الغرب وحاولت أن تخضع لها النص الإسلامي، ولذلك تمثلت هذه المقاربات في المقاربة الألسنية، والإبستمولوجية، والأنثربولوجية.

2- إن هذه المقاربات كما تم في التعريف بها هي مقاربات غير إسلامية فهي استثمار لآليات ومقولات ونتائج اللسانيات والإبستمولوجيا والأنثربولوجيا وهي علوم ليست إسلامية، وتعمل القراءة المعاصرة على تطبيقها على النص الإسلامي، وهذا يحيلنا على المسلمة التي تمت الإشارة إليها في المقدمة والتي تم التأكيد فيها على ضرورة إخضاع المنهج للنص وليس العكس، ولكن عند التطبيق نجد الممارسة التعسفية للمنهج حيث أخضع النص الإسلامي لمنهج أو لمناهج غريبة عنه كل الغربة وهذه من المفارقات.

3- مما تقدم يمكن القول أن عملية القراءة فعل معقد، والقراءة المعاصرة بالصورة التي يراد تأسيسها للنص الإسلامي أو تأسيسها نسبياً أمر يكون أكثر تعقيداً؛ ذلك لأنه يريد إخضاع نص له خصوصياته هو النص الديني الإسلامي لمنهج غريب عنه هو المنهج الوضعي الغربي.

4- إن عملية التوسل بمناهج غريبة عن النص ليس في حد ذاته أمر مرفوضاً وإنما يصبح كذلك حينما لا يعمل على تبيينه وعدم التمهيد لتطبيقه على النص الإسلامي، وإنما تعذرت عملية التمهيد لعدم توفر عناصرها.

وعليه فالقراءة المعاصرة للنص الإسلامي خضعت لانتقادات كثيرة وما تزال مفتوحة على النقد والمراجعة.

